النمو الأخلاقي

ملاحظة: (سوف يجرى إثراء وتعديل فى الدرس لاحقا)

مقدمة: يستهل الدكتور أحمد أمين المفكر العربي المعروف كتابه "الأخلاق" بقوله " كلنا يحكم على بعض الأعمال بأنها خير، وعلى بعضها بأنها شر، فنقول: العدل خير،والظلم شر، وأداء الدين إلى صاحبه خير، وإنكار المدين ما عليه شر.."(أحمد أمين (ص10). ويضف بأن، "..موضوع علم الأخلاق هي الأعمال التي صدرت من العامل عن عمد واختيار، يعلم صاحبها وقت عملها ماذا يعمل، وكذلك الأعمال التي صدرت لا عن إرادة ولكن كان يمكن تجنب وقوعها عندما كان مريدا مختارا، فهذان النوعان يحكم عليهما بالخير أو الشر وأما ما يصدر لا عن إرادة وشعور، ولا يمكن تجنبه في حالة الاختيار فليس من موضوع علم الأخلاق. (أمين ص11).."، فالأعمال أو السلوكات التي تصدر عن الشخص عن وعي وإرادة توصف بأنها خير أو شر. كإنقاذ طفل من الغرق أو سرقة شيء من محل تجاري. ولكن لنتمهل رويدا، الأمر ليس بهذه البساطة، فهناك سلوك يوصف بأنه أخلاقي أو أنه سلوك لا أخلاقي، وهناك من جهة أخرى حكم على السلوك، فقد يحكم الشخص على سلوك الغش في المدرسة بأنه سلوك لا أخلاقي يستوجب العقاب؛ إلا أنه عندما يكون في موقف تنافسي يجد نفسه مدفوعا إلى الغش، وإذن فشتان بين الحكم على السلوك والقيام به. وقبلها يجب التساؤل عن معنى الأخلاق لغويا. ابن منظور يعرف الخلق بضم اللام وسكونها على أنه الدين والطبع والسجية، وكما أن للإنسان صفات وملامح جسمية خارجية فله أيضا صفات نفسية داخلية مثل الكرم والعدل والوفاء؛ وقد تكون هذه الصفات سلبية ومرفوضة اجتماعيا مثل البخل والجبن والظلم والغدر. يسميها ابن منظور خلقا. وإذن فموضوع الأخلاق يتمحور حول هذه الصفات سواء كانت سلبية أو إيجابية. و عرَّف الجرجاني الخلق بأنَّه (هيئة للنفس راسخة تصدر عنها الأفعال بسهولة ويسر من غير حاجة إلى فكر ورويَّة، فإن كان الصادر عنها الأفعال الحسنة كانت الهيئة خلقًا حسناً، وإن كان الصادر منها الأفعال القبيحة سميت الهيئة التي هي مصدر ذلك خلقاً سيئاً" (2) وإذن فنحن نصف طبيعة الأفراد وصفاتهم النفسية على أساس ما يصدر عنهم من سلوك. اما الجاحظ فيعرف الخلق بأنه : حال النفس، بها يفعل الإنسان أفعاله بلا روية ولا اختيار، والخلق قد يكون في بعض الناس غريزة وطبعاً، وفي بعضهم لا يكون إلا بالرياضة والاجتهاد، كالسخاء قد يوجد في كثير من الناس من غير رياضة ولا تعلم، وكالشَّجَاعَة والحلم والعفة والعدل وغير ذلك من الأخلاق المحمودة." (2). نلاحظ أنه عندما يصف الخلق بأنه حال النفس لا يختلف في شيء عن تصور ابن منظور، لكنه أضاف " بلا روية أو اختيار، (2)أي تلقائيا وبدون إعمال تفكير. ثم يشير إلى أن هذه الصفات قد تكون لدى البعض فطرية وتولد معه، والبعض الآخر يكتسبها، أي يتعلمها من محيطه وهنا لا يختلف الجاحظ عن فرويد عند إشارته إلى تكون الأنا الأعلى الذي هو استدخال الطفل لعملية الضبط الخارجي لسلوكه الصادرة عن المربين وبشكل خاص الأم والأب. والاستدخال بهذا المعني يقصد به التعلم.. والضمير كما سبق وأن شرنا في درس النمو النفسي ليس مرادفا للأنا الأعلى ولكنه جزء منه. ويتفق الجاحظ أيضا في ذلك مع علماء المدرستين؛السلوكية و التعلم الاجتماعي (التعلم بالنموذج). الجاحظ يقول أيضا بأن الخلق فيه ما هو فطري وفيه ما هو مكتسب...إنه هنا يجمع فيما بين الفطري والمتعلم.

تعريف الأخلاق اصطلاحا: تعبر الأخلاق عن المبادئ الأخلاقية التي تشير إلى كل ما هو خير وحق وعدل وإنصاف، أو تشير بتعبير آخر إلى الطريقة الأخلاقية في السلوك أو الطريقة الأخلاقية في تعامل الناس . أو بمختصر القول، تشير إلى قواعد السلوك الأخلاقي المتميز بما هو خير أو شر أو حق أو باطل.

النمو الأخلاقي عند بياجي وكولبرغ: لقد عولج النمو ألخلاقي من وجهات نظر نفسية مختلفة بما فيها نظريات التعلم والتحليل النفسي، إلا أن الدراسات الحالية متأثرة بشكل أكبر بأفكار كل من بياجيه ولورنس كولبرغ. وإذن فما هي مراحل النمو لدى كل من بياجيه كولبرغ؟

أ- النمو الأخلاقي عند بياجيه:

يهتم بياجيه بالحكم الأخلاقي وليس بالسلوك الأخلاقي، ويرتبط النمو الأخلاقي عنده بالنمو العقلي ، فهو في نظره وجه من وجوه النمو العقلي، ويسلم بأن هناك مراحل للنمو الأخلاقي. ولقد تمحورت أفكاره لفهم النمو الأخلاقي عند الطفل حول ثلاثة أفكار أساسية ، وهي: قواعد الألعاب والأخلاقية الواقعية والعدل. ولقد أستعمل المقابلة لدراسة النمو الأخلاقي مع الأطفال؛ فكان يسرد عليهم قصصا تتضمن أحكاما أخلاقية ويطلب منهم التعليق عليها وإصدار أحكام أخلاقية حولها، ووصل في النهاية إلى تقسيم النمو الأخلاقي إلى مرحلتين وهما:

مرحلة الواقعية الأخلاقية: من 4 سنوات إلى 7 سنوات، وينظر فيها الأطفال إلى القواعد الأخلاقية على أنها خارجية وليست صادرة عن اتفاق الأطفال، ومطلقة وثابتة لا تتغير، وإلزامية التطبيق بدون مناقشة أو إبداء للرأي فيها. ويحكم على أساس نتائج السلوك، لا على أساس المقاصد أو النوايا؛ فإذا فرضنا بأن طفلا كسر صحنا عن قصد، وطفلا آخر كسر عدة صحون عن غير قصد، وكانت نيته مساعدة الوالدة، فإن طفل هذه المرحلة يحكم على أنه يجب معاقبة الثاني أشد من معاقبة الطفل الأول، لأنه كسر عددا أكبر من الأواني. ويرجع ذلك كما سبق في النمو العقلي للطفل إلى تمركزه حول ذاته وعدم قدرته على تصور نفسه مكان الآخر وفهم وجهة نظره.

مرحلة الإستقلالية الأخلاقية: من 10 سنوات فما فوق: ويمر الطفل بمرحلة انتقالية في نموه الأخلاقي فيما بين 7 و10 سنوات من العمر، وفي هذه المرحلة يبني الشخص أحكامه الأخلاقية على أساس النية والقصد، وليس على أساس نتائج السلوك؛ ففي المثال السابق يمكن العفو عن الطفل الذي كسر عددا أكبر من الأواني لأن نيته وقصده كان مساعدة أمه لا تكسيرها. بينما معاقبة الأول لأنه كسر الصحن عن قصد. ويعتقد الشخص أن القواعد الأخلاقية قابلة للتغير وأنها يجب أن تكون مقنعة ومقبولة وتتفق مع ما يراه المجتمع، فما كان ممنوعا يمكن أن يتغير ليصبح مباحا فالأخلاق نسبية. والعقاب ليس مطلقا وحتميا وإلزامي التطبيق.
ويعتقد بياجيه بأن جميع الأطفال يمرون بهاتين المرحلتين بغض النظر عن المجتمع والثقافة، فهما عامتان.

ب- النمو الأخلاقي عند كولبرغ

تعتبر نظرية لورنس كولبرج Lawrence kohlberg أحدث نظريات النمو الأخلاقي ، كما أنَّها تعتبر أكثر النظريات ثراءً. ولد كولبرج,في 25 أكتوبر من عام 1927 في برونكسفيل (نيويورك)، بالولايات المتحدة الأمريكية. عاش طفولته الأولى بنيويورك. وفي عام 1984 التحق بجامعة شيكاغو لدراسة علم النفس. تأثر بنظرية بياجيه في النمو، واستعمل المقابلات مع الأطفال والمراهقين لدراسة التفكير الأخلاقي في إعداد الدكتوراه . وتأثر أيضا بجانب تأثره ببياجيه بالفيلسوف والمربي الأمريكي جون ديوي وغيره، إلا أن أهم ما تميز به تبنيه للنمو المعرفي عند بياجيه ؛ فأخذ عنه مفهوم مراحل النمو ومنهجه وطريقته في البحث. وافته المنية في يناير من عام 1987ب" نثروب"(ماساتشوستس، الولايات المتحدة الأمريكية).

النمو الأخلاقي عند كولبرغ: يربط كولبرغ فيما بين النمو الأخلاقي والعقلي كما فعل بياجيه، وبهذا لا يخرج عن إطار النظرية البنائية. ويقسم النمو الأخلاقي إلى مراحل متتالية. ويختلف عن بياجيه في قوله بأن النمو الأخلاقي يستمر بعد 12 سنة من العمر.

المعضلات عند كولبرغ:The Heinz Dilemma

استعمل كولبرغ المعضلات في دراسة النمو، والمعضلة الأكثر تداولا في كتب علم نفس النمو، هي أنه كانت في أوروبا سيدة مصابة بنوع من أمراض السرطان، اعتقد الأطباء بتوفر دواء قد يشفيها من مرضها العضال. إنه يتعلق بنوع من معدن الراديوم، اكتشفه صيدلي من نفس المدينة منذ فترة وجيزة. والدواء مكلف وباهظ الثمن، ولكن الصيدلي طلب من زوجها المدعو هاينز مقابله 10 أضعاف ما أنفقه في صناعته، مع أنه ابتاع الراديوم ب 200 دولار، وطلب مقابل جرعة صغيرة منه 2000 دولارا. حاول هاينز تدبير أمره؛ فاستطاع أن يستدين من معارفه والمقربين منه 1000 دولار فقط، وهو نصف المبلغ المطلوب. أخبر الصيدلي بأن حياة زوجته في خطر مما يستدعي التعجيل في الحصول على الدواء. وألح عليه بأن يخفض السعر، أو يمهله في الدفع حالما تستقيم أموره ويستطيع الدفع. فأجابه الصيدلي: " لقد اكتشفت الدواء، وأنا أريد من ورائه جمع المال.". شعر هاينز بالإحباط واليأس، وفكر في أن يقتحم الصيدلية ويسرق الدواء لتخليص زوجته من الموت المحدق بها. والسؤال: هل يجب على هاينز سرقة الدواء لإنقاذ زوجته من الموت؟ هل كان على صواب أو خطإ؟ وإذا كان الجواب أنه كان على صواب أو(خطإ)، فهل هذا الحكم من الناحية الأخلاقية عام لدى الناس أم أنها وجهة نظر فقط؟ وإذا قررنا بأنه كان عليه أن يسرق الدواء، فهل يجوز هذا قانونيا؟ ألا يتناقض مع التشريعات القانونية؟ ماهي مبررات أحقيته في سرقة الدواء؟ ويطلب من الأشخاص موضوع الدراسة الإجابة عن مثل هذه الأسئلة . ويقصد بذلك اتخاذ قرار حول ما يجب أو لا يجب وحول هل يعاقب أو يخفف عنه العقاب وما إلى ذلك.
ومن هنا فالهدف من الدراسة هو تعيين الحجج التي يقدمها الأشخاص، لكي نتمكن من تحديد مرحلة النمو ا لأخلاقي التي بلغها الشخص المدروس. وقد تكون الإجابة: " نعم، يجب أن يسرق هاينز لأنه يحب زوجته". أو تكون. "يجب أن لا يسرق الدواء حتى لا يزج به في السجن". وهنا يتخذ الأشخاص القرار ولكنهم لا يبررون حكمهم، وبالتالي وجب طرح سؤال آخر للكشف عن الحجج أو المبررات التي يسوقها الشخص. ويكون السؤال من قبيل، لماذا يسرق هاينز الدواء من أجل الشخص الذي يحبه؟ أو السؤال لماذا يجب الزج بهاينز في السجن مع أنه سرق لإنقاذ حياة إنسان من الموت المحتوم؟ وعند هذا الحد تكشف الإجابات عن بنية التفكير، أي مرحلة النمو الأخلاقي التي بلغها الشخص المعني بالدراسة. فإذا أجاب الشخص بأن " الصحة مبدأ أساسي لإسعاد الناس في المجتمع بغض النظر عن حبنا لهم أو كراهيتنا لهم" (المرحلة الخامسة). والإجابة الأخرى يمكن أن تكون: " يجب احترام حق الصيدلي في الاستفادة من براءة اختراعه، و يجب أن لا نسرق اختراعه." (المرحلة الخامسة أيضا)

مراحل النمو الأخلاقي عند كولبرغ: يربط كولبرغ فيما بين النمو الأخلاقي والعقلي كما فعل بياجيه، وبهذا لا يخرج عن إطار النظرية البنائية. ويقسم النمو الأخلاقي إلى مراحل متتالية. ويختلف عن بياجيه في قوله بأن النمو الأخلاقي يستمر بعد 12 سنة من العمر.ويقسمه إلى ثلاثة مستويات، ، يتفرع كل منها إلى مرحلتين فرعيتين، وهي كالتالي:

أولا **المستوى ما قبل التقليدي:** Preconventional Level

ويسود هذا المستوى استجابة الطفل للقواعد الثقافية (الأخلاقية) أو قواعد التمييز فيما بين الخير والشر، أو الحق والباطل بالمعنى الأخلاقي، لكنه يفهم الأفعال على أساس نتائجها المادية الملموسة أو نتائجها النفعية المتوقعة من ثواب أو عقاب أو منافع متبادلة.

وينقسم هذا المستوى إلى:

المرحلة الأولى: **توجه العقاب و الطاعة** The Punishment and Obedience Orientation

و يحكم فيها الطفل على أساس ما يترتب عن الأفعال من ثواب أو عقاب. وينظر إلى الطاعة على أنها قيمة في حد ذاتها، لكنه يخضع للأشخاص الأكبر سنا. وعلى حد تعبير كولبرغ فإن النتائج المادية الملموسة هي التي تحدد على أنها خيرة أو شريرة(سيئة) بغض النظر عما يحمله الشخص من قيمة أو معنى لما يترتب عن الفعل.. the physical consequences of action determine its goodness or badness. مثال: يجب أن لا يسرق هاينز حتى لا يدخل السجن.

المرحلة الثانية: **توجه نفعي نسبي** The Instrumental Relativist Orientation

يحكم الشخص على أساس ما يجنيه من نفع متوقع وعلى أساس المنافع المتبادلة، فينظر إلى العلاقات بين الأشخاص كما لو كانت شبيهة بسوق للمقايضة. إن العدل أو الإنصاف fairness، وتبادل وتقاسم المنافع reciprocity دائما حاضرة، ولكن ينظر إليها نظرة مادية نفعية(ذرائعية). فالتبادلية تعني تبادل المنافع (من عندي وعندك... كما يقال بالدارجة). ولا تعبر عن قيم رفيعة فلا يوجد تبادل فعلي مبني على الكرم والود والاستقامة و الإخلاص والإنصاف والعدل بالمعنى الأخلاقي المجرد من المصالح المتبادلة. يجب أن يسرق هانز الدواء لإنقاذ زوجته من الموت، لأنه بحاجة إليها هو الآخر، وقد تنقذ حياته هي الأخرى لأنه أنقذ حياتها من خطر الموت.

ثانيا **المستوى التقليدي** Conventional Level

ينظر الشخص إلى توقعات العائلة أو الجماعة أو المجتمع الذي ينتمي إليه على أنها مهمة وذات قيمة في حد ذاتها ؛ فهو يأخذ المجتمع في الحسبان عند إصداره للأحكام، فالأفعال تكون حسنة لأنها تحافظ على النظام الاجتماعي بغض النظر عن النتائج المادية الآنية المتوقعة. إن الأمر لا يتعلق هنا بالانقياد لما يتوقعه من النظام الاجتماعي، فقد ينقاد الشخص للمجتمع وينفذ ما يريده منه؛ ولكنه غير راض لما يقوم به، لكنه في حالتنا هذه فإن الأمر مختلف، فالشخص يكون مخلصا لما يعتقد أنه الموقف الصائب، و ثابت على الحفاظ على النظام، متقمص للأشخاص والجماعات الداخلة في النظام الاجتماعي.

وينقسم المستوى التقليدي إلى المرحلتين التاليتين:

المرحلة الثالثة: توجه الولد الطيب والبنت الطيبة: The Interpersonal Concordance or "Good Boy-Nice Girl" Orientation

يعتقد الفرد في هذه الحالة بأن السلوك الجيد هو ما يرضي الآخرين أو ما يساعدهم وما يلقى الاستحسان لديهم. ويدخل في هذه المرحلة في فهم نوايا الآخرين، فيحكم على السلوك على أساس النوايا والمقاصد لا على أساس نتائج الأفعال. فالطفل الذي كسر إناء عن قصد ليس كالطفل الذي كسر عددا من الصحون عن غير قصد، فالأول يجب معاقبته بينما الثاني قد لا يستحق العقاب.

المرحلة الرابعة: **توجه النظام :** « low and order orientation » Society Maintaining Orientation

وفي هذه المرحلة يكون التوجه نحو السلطة أو حفظ النظام authority وقواعد السلوك الثابتة والحفاظ على النظام الاجتماعي، فالسلوك الجيد يتمثل في القيام بالواجب وإظهار الاحترام للسلطة والحفاظ على النظام الاجتماعي لذاته وليس لهدف آخر. مثال: يجب تسليط العقاب المناسب على هاينز لأنه خرق القانون، ولو فعل الناس جميعا ما يفعله هانز لخرب المجتمع.

ثالثا <u>المستوى ما بعد التقليدي:</u> Postconventional, Autonomous, or Principled Level

يتحرر عند هذا المستوى الشخص في حكمه الأخلاقي من سلطة الجماعة التي ينتمي إليها. ويصدر الأحكام على أساس القناعات الأخلاقية التي يتبناها بغض النظر عن العلاقات الاجتماعية وعن النظام وعن الجماعة التي ينتمي إليها أو المجتمع الذي يعيش فيه. ويصل به فهمه إلى القيم الإنسانية غير المقيدة بأي مجتمع من المجتمعات.

وينقسم هذا المستوى إلى:

<u>المرحلة الخامسة</u>: توجه العقد الاجتماعي :The Social Contract Orientation(the social contract, logistic orientation

، إن الأحكام أو القرارات الصائبة تقوم على أساس القواعد والمعايير التي يتفق عليها المجتمع ككل، فيجب أن لا تمر القوانين والقواعد الأخلاقية دون مناقشة واتفاق. إن القواعد والقوانين الأخلاقية يمكن تغييرها. إذا وقع تضارب فيما بين حاجات الناس والقانون فإنه يجب تفهم حاجات الناس، ولكن القانون يجب أن يطبق. القوانين ليست جامدة ولكنها تساير حاجات المجتمع وظروفه ومنفعتها له. وليس كما الحال في المرحلة السابقة، التي تركز على القانون والنظام وتطبيق القانون بدون مناقشة.

<u>المرحلة السادسة</u>: توجه المبدأ الأخلاقي: The Universal Ethical Principle Orientation

يبنى الحق في هذه المرحلة على أساس الاختيار الواعي الذي يتماشى مع المبادئ الأخلاقية التي يتبناها الفرد. وتتصف هذه المبادئ بأنها إنسانية وعامة ومجردة تخص الإنسانية جمعاء بلا تمييز، تقر بحق الإنسان في الحياة الكريمة والاحترام والتقدير المتبادل بغض النظر عن الوطن والعرق والجنس والدين والنسب والمستوى الاقتصادي. ومثال ذلك، حق الإنسان العربي في فلسطين أن يعيش في وطنه معززا مكرما، وأن لا يغتصب الصهاينة أرضة.. ولكن كولبرغ كان مع الأسف يؤيد الصهاينة في اغتصاب فلسطين؛ فهل العرب في اعتقاده ليسوا بشرا حتى يشارك في قتلهم وتشريدهم؟؟ إن كولبرغ يدرس الأحكام الأخلاقية؛ ولا يدعو إلى الالتزام بالقيم، وشتان بين الدعوة إلى تبني المبدأ الأخلاقي العام والسلوك الأخلاقي وفق الحكم الأخلاقي العام والمبادئ الإنسانية السامية.

ج- **<u>اتجاهات وانتقادات لأفكار كولبرغ حول النمو الخلاقي</u>** :
لقد عابت السيدة كارول جليقان Gelligan على كولبرغ تحيزه للذكور في دراسته للنمو الأخلاقي؛ لأن التوجه الأخلاقي يختلف لدى الإناث عنه لدى الذكور. وتعتقد بأن الذكور يطورون أخلاقية العدالة بينما تطور الإناث أخلاق الرعاية لأنهن من طبعهن أنهن يملن إلى تكوين علاقات مع الآخرين وتقديم العون لهم والعناية بهم. وقسمت السيدة جليقان النمو الأخلاقي عند الإناث إلى ثلاثة مراحل:
-1 **<u>مرحلة المصلحة الشخصية</u>**: وتعتمد الأحكام الأخلاقية عند الأنثى على الأنانية والمصلحة الذاتية، و تشبه هذه المرحلة المستوى ما قبل التقليدي عند كولبرغ.
2- **<u>مرحلة التضحية بالذات</u>**: وتتصف أحكام الإناث بإيثار مصلحة الآخرين على المصلحة الشخصية والحاجات الذاتية
<u>3 مرحلة التكامل بين الاهتمام بالذات والاهتمام بالآخرين</u>: توفق الأنثى في هذه المرحلة فيما بين الحاجات والمصالح الذاتية ومصالح وحاجات الآخرين .

---

1) أحمد أمين: ألأخلاق. **مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة 2012/8/26 . القاهرة. جمهورية مصر العربية**
2) https://www.wahdaislamyia.org/issues/174/nalisaleh.htm